

## المحاضرة الخامسة عشر

سابعاً: رؤية المؤرخين للتاريخ وفلسفته من زاوية الارتباط بالمهنة:

ان كلاً من المؤرخ والفيلسوف التاريخ يبديان اهتمامهما في موضوع واحد، لكن كل حسب زاويته، اذ يظل التاريخ حياً بأحداثه ووقائعه الجزئية معروفاً بها مع كل الرؤى التي تعبر عن انطوائية التاريخ والكتابة التاريخية، وللغلاسة تأملاتهم واسئلتهم الفلسفية التي يطبقونها على المادة أي التاريخ من اجل التوصل الى نتائج ورؤى فكرية حول مسيرة التاريخ البشري ومستقبله من خلال استنباط العموميات. اذ يبحث الفيلسوف عن الحقيقة المجردة اما المؤرخ فهو مهما استسلم الى إغراءات الكتابة الأدبية والفنية الا انه يبقى مقيداً بأسوار الحقيقة التي لا يستطيع الحياد عنها. ولكن يبقى السؤال هل التاريخ علم وكيف يمكن اثبات علميته ومن أي العلوم هو؟ وهذا الامر ربما لا يشغل الفلاسفة، لكنه كان والازال الشغل الشاغل للمؤرخين الذين يهدفون من دراسة فلسفة التاريخ تحليل معنى التاريخ ومفهومه وطبيعة المعرفة التاريخية، ومن هنا يقترب التاريخ من الفلسفة في التحليل والاستنباط والنقد في معالجة قضايا التاريخ واستنباط الأحكام والقوانين العامة والثابتة في متناول عدد من الموضوعات التاريخية وطريقة معالجة أحداثها.

اذا كانت الفلسفة هي المنطقة الوسط بين اللاهوت والعلم فهي تشبه الاول لانها تقوم على أساس من التأملات في موضوعات لم تبلغ حد اليقين، (وهي صفة يتصف بها التاريخ)، وتشبه العلم لانها تخاطب العقل اكثر من ما تستند الى الجزم في المسائل الاعتقادية، وهذا ما يحاوله التاريخ أيضاً. لذلك يرى بندتو كروتشه الفيلسوف الإيطالي "بان المؤرخ ينبغي ان لا يكتفي بمؤهلاته الكتابية والمنهجية بل عليه ان يناقش الأسس العلمية التي يستند اليها تفسيره أي يجب عليه ان لا يكون مؤرخاً فقط بل فيلسوف أيضاً"، بالإضافة الى ذلك قال كروتشه "بان الفلسفة يجب ان لا يكتبها الا المؤرخون" كمحاولة للقول بانهم اكثر الناس الماماً بحكاية الإنسانية على الأرض، وهو ما يعني انهم اكثر قدرة على فهمها ويخلص كروتشه "ان كل من يحمل لقب مؤرخ فهو فيلسوف سواء أراد ذلك ام لم يردده"، وربما هو لم يقصد التقريب بين المؤرخ والفيلسوف من حيث القدرة العقلية والنظرة الشاملة للامور والاحداث والنظر الى المستقبل بل كان يقصد كذلك ان كل مؤرخ يعبر عن ذاته من خلال تاريخه (النشار، ٢٠١٢، صفحة ٢٩)، والمعيار في هذا الامر بالنسبة للمؤرخين مقارنة بالفلاسفة هي الموضوعية التي هي صفة

ومعيار لنتائج المؤرخين ترفع البعض منهم وتجعلهم من الثقات وتسفه جهود البعض الآخر لابتعادهم عنها بسبب انتماءاتهم او انفعالاتهم الشخصية او نوع العقلية التي يحملونها.

يبحث المؤرخ والفيلسوف كلاهما عن الحقيقة فالاول في حقيقة الأحداث التي جرت محددة بزمان ومكان، والآخر بمفهومها المطلق والاثنين يدخل بمنهجها الشك الفيلسوف يبحث عن حقائق وقواعد وقوانين ثابتة تحكم حركة الكون ومصير الانسانية، والمؤرخ في فلسفة التاريخ يبحث عن تفسير الأحداث والوقائع بصيغتها الجزئية، وقوانين وقواعد عامة وثابتة تحكم مسيرة التاريخ البشري قدر تعلق الامر بتفسير الأحداث وربطها وتتبع جذورها لذلك فالمؤرخ ينظر الى الموضوع من زاوية الاحتراف للمهنة. فاذا كان الحدث هو مادة التاريخ منذ ان وطأة اقدام الانسان الارض وصياغة تلك الأحداث وتفسيرها، لاسيما القديمة منها يجب ان يكون بأسلوب فلسفي، وهو ما يعني ان التاريخ مادة الفلسفة، وهو لا يتعارض مع فكرة ان الفلسفة هي ام العلوم لان العلوم جميعها تبدأ بالتفلسف وبعد ان تصوغ الفلسفة قوانين لها تتحول الى علوم قائمة بذاتها وهو ما لا يصح مع التاريخ الى الوقت الحالي لان الفلاسفة لم يتفوقوا الى الان على قرينة تحكم حركة التاريخ ونشوء الحضارات واطمحلال دورها او انهيارها، حتى بعد تشبيهها بحياة الكائن الحي. لذلك اذا عرفنا الفلسفة بانها محاولة جادة لمعرفة الحقيقة او التحري عنها، والسؤال أي حقيقة هل حقيقة الظواهر الطبيعية وحركة الأشياء التي من حول الانسان وخارج مداركه او عن ماهية الانسان ومصيره والواقع ان محاولة الانسان للوصول الى الحقيقة هو علم بحد ذاته.

يبقى السؤال الذي اصبح شائعاً في العالم المعاصر والمخرج بالنسبة للمؤرخين ما هي أهمية دراسة التاريخ وهل هو احد أسباب تخلف المجتمعات؟ لانه يثير النزاعات ويجعل الناس لا يرنون الى الامام، بل يهتمون بماضيهم اكثر مما يخططون للمستقبل وتطرف البعض لدرجة المطالبة بحذفه من المناهج الدراسية. ربما من الأفضل الإجابة على التساؤلات أعلاه باخرى مفتوحة، ماذا لو حذف التاريخ والمعرفة التاريخية من حياة البشرية؟ كيف لنا ان نتصور حياة البشرية؟ وهل ذنب التاريخ والمعرفة التاريخية ان هناك مجتمعات يوظفها التاريخ بدل ان توظفه؟

يرى محسن محمد "انه لا بد من القول بان التاريخ عرف بانه وعاء الخبرة البشرية، والعلم الخاص بجهود الانسان التي بذلت عبر الازمان السابقة، او هو المحاولة التي تستهدف الإجابة على الأسئلة التي تتعلق بتلك الجهود في الماضي، فالتاريخ يتناول طوايا حياة أبنائه وافكارهم،

ومدى ارتباط تلك الأفكار بمعيشتهم، ثم علاقة تلك الحياة والأفكار بسيرة الانسان في الأرض وجهوده المتواصلة لرفع شأنه في سلم الحضارة اقتصادياً وعلمياً فكرياً، ومدى ارتباط ماضي المجتمعات والأمم بحاضرها، وحاضرها بمستقبلها". وينقل عن كولنجوود قوله: ان معنى التاريخ يكمن في ان الماضي الذي يبحث فيه المؤرخ ليس ماضٍ ميت، لكنه ماضٍ بمعنى ما مازال يحيا في الحاضر او "التاريخ هو سجل للتقدم البشري، ولتكامُل المعرفة وازدياد الحكمة". او وفقاً لكروتشه "كل تاريخ حقيقي هو تاريخ معاصر فالحياة وحدة متكاملة والمواقف المتخذة في الماضي تؤثر وتتأثر بمعتقدات الحاضر وامال المستقبل". ويتساءل من أي نوع من أنواع المعارف هو التاريخ؟ هل هو ضمن المعارف الميتافيزيقية (الغيبية ، الدينية)؟ ام هو فن من الفنون الكتابية، ام هو علم بين العلوم؟ ام هو ضمن الفلسفة؟ فهل يصح ان تكون هناك معارف غير المعارف المذكورة؟ ويجيب محسن محمد "تعم فهو خارج المعارف المذكورة فلو كان التاريخ ضمن احدى تلك المعارف لحسم الامر وانتهى التساؤل الذي اثير منذ أربعة وعشرين قرناً. أي منذ كتبت حوادث التاريخ بشكل منتظم. وجعلتهم يتساءلون عن طبيعة تلك الحوادث" (حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، ٢٠١٢، الصفحات ٢١-٣٠). والسؤال المهم هل تكفي إجابة الدكتور محسن محمد؟ ام ان الامر مازال وسيبقى مفتوحاً وهو الأرجح.

### ثامناً: الخلاصة

○ يدرس المؤرخين فلسفة التاريخ في الأقسام الاكاديمية لمنح دراسة التاريخ والتخصص فيه بعداً فكرياً يساعد المؤرخ المبتدأ في فهم الاحداث وتفسيرها، ومنحه ملكة نقدية لتفسير التاريخ والمعرفة التاريخية ومدارس الكتابة وعملية معالجة الإشكاليات التي يطرحها المؤرخين في كتاباتهم الاكاديمية وتفسيرها وفقاً للرؤية المنهجية التاريخية، ولدراسة أنواع تفسير التاريخ كالتفسير الديني والمثالي والمادية التاريخية... الخ، ونظريات الفلاسفة في هذا المجال اي قدر تعلق الامر بالفكر التاريخي لدى الفلاسفة هيغل وماركس... الخ ورائهم في حركة التاريخ ونشوء الحضارات، ومن اجل تسهيل عملية تفسير التاريخ وتحليل الاحداث التاريخية، وذلك ما توضحه نتاجات المؤرخين في مجال فلسفة التاريخ واسهاماتهم في اغناء هذا الحقل المعرفي، لذلك تعد مادة فلسفة التاريخ أهم مادة علمية لترصين الفكر التاريخي والمعرفة التاريخية لدى المؤرخين، التي يجب انعكاسها على نتاجاتهم العلمية.

○ ان رؤية المؤرخين لفلسفة التاريخ من زاوية مختلفة عن رؤية الفلاسفة؛ فالأمر بالنسبة للمؤرخ يتعلق بالمعرفة التاريخية والنظر من زاوية الانتماء للمهنة دون الدخول بالمفهوم المطلق للفلسفة لأنه واجب الفلاسفة. وإذا عرفنا الفلسفة بأنها "البحث عن الحقيقة" يتبادر السؤال هل الحقيقة المطلقة أم الحقيقة بمعنى العلم اذا كانت بمعنى العلم فهو يعني ان الفلسفة هي العلم الجامع أو علم العلوم، وهو يعني ان العلوم جميعها، ولدت من الفلسفة أي اذا صارت القضايا المختلف حولها حقيقة ثابتة، ولها مجموعة حقائق وقوانين تحكمها خرجت من نطاق الفلسفة ودخلت في نطاق العلم، وهكذا كما اسلفنا انفصلت العلوم عن الفلسفة، وأصبح لكل علم فلسفته الخاصة يعبر عنها المتخصصون في هذا العلم او ذاك، ومن هنا جاءت الدكتوراه في فلسفة التاريخ أو الاجتماع ... الخ.

○ ان فلسفة التاريخ هي المعرفة التي يهتدي بها المؤرخون للكشف عن حقيقة التاريخ وجاءت الحاجة لها للإجابة على السؤال ماذا حصل ولماذا وكيف؟ ومن هنا سعى المؤرخون الى اعتماد فلسفة التاريخ في أعمالهم والتركيز على تدريسها للمؤرخ المبتدئ كي لا تصبح دراسة التاريخ أكواما من المعارك المعاهدات السياسية والاحداث المتسلسلة دون منح هذه الحوادث ابعادها الحقيقية وتعليقها، ومن ثم فانهم استهدفوا تحويل الدراسة التاريخية من التاريخ السياسي والعسكري الى فلسفة الحضارة، ومهمتها الاساسية ان تكون دراسة التاريخ اهم من سرد اخبار الملوك وسير الحكام الى تتبع سير العقل البشري، وتتبع العلل التي تواجه مظهر النشاط الإنساني؛ وخلاصة القول ان للتاريخ نكهة خاصة وللحادثة التاريخية رونقها الخاص بالحفاظ على الموضوعية، لكن لا حياد عن الذات او الفروض العقلية التي تزيد الحدث التاريخي رونقاً ووضوحاً ونفعاً، كما ذهب عبد الجبار ناجي.

○ التاريخ: هو ما يرسمه المؤرخين بروح الحاضر ورؤيته للماضي، لذلك فالتاريخ هو نتاج ذهنية المؤرخين بروح حاضرهم وحاجته وكلما تغير وتطور هذا الحاضر ظهرت رؤى جديدة لاحداث التاريخ واعيد النظر بكتابتها، لذلك يمكن القول بان التاريخ كله تاريخ معاصر.

○ يعتقد الغالبية العظمى المؤرخين بان فلسفة التاريخ هي ترف فكري ليس الا وتبعد التاريخ عن الموضوعية، لكنها في واقع الحال تقع في صميم عمل المؤرخ وتعد بمثابة الروح التي يبثها المؤرخ بالمادة الميتة وغير ذات جدوى في بعض الأحيان، وهي احداث التاريخ من زاوية ارتباطها بالماضي فقط.

○ ان استدامة علم التاريخ توجب الاهتمام بالجانب المعرفي في "المناهج الدراسية لاقسام التاريخ" أي التركيز على نشأة وتطور علم التاريخ ومفهومه وطرق تفسيره وطبيعة المعرفة التاريخية. بدافعنا عن اهمية علم التاريخ ربما من اهم الأمور التي تتبادر الى ذهننا "القول بان واحدة من ابرز صفات العلوم هي التراكمية لذلك فالتاريخ هو من حفظ للعلوم مكتشفاتها واختراعاتها او نظرياتها عبر الزمن" والسؤال: هل تم تطبيق ذلك على علم التاريخ؟ وهل ثمت من سعى الى تدريس نشأة وتطور علم التاريخ والمعرفة التاريخية؟ وكأن المناهج التي ورثناها مسلمت يجب عدم المساس؟ هل تصح الاجابة بان السبب في ذلك ان المناهج أصبحت "قديمة" منذ نشأة منهج البحث التاريخي في اوربا، ووقت ذاك لم تكون هناك مدارس للكتابة التاريخية او ان الكتابة التاريخية لم تكون تعي ذاتها. وربما وأصبحت لا تلبي متطلبات عالم ما بعد الحداثة.

○ يجب ان تكون هناك بداية او نقطة شروع مبنية على ايمان بأهمية التاريخ وعلميته، ومن اجل الوصول الى نتائج علمية يجب تبني افتراض انه من اجل التغيير او التحديث يجب تبني نظام فكري مستقل (مدرسة تاريخية)، وهو ما يتطلب ان يكون المتصدي على دراية ووعي تام ويستند طرحه الى ارضية علمية، وهذه الأخيرة لا توفرها اقسام التاريخ في عالمننا العربي.